

فلسطينيات :

أولجا رومانوف

للأستاذ نجاتي صدقي

—»»»»»—

يرفها الناس باسم « السيدة السكوبية » ، وهي تجيد خمس لغات أوربية ، كما أنها تتحدث قليلا بالعربية العامية ، وبموجبها أن تعرب عن أفكارها أحيانا باللفظ العربي الفصيح فتقول مثلا : « ينال على ظني أن الأمر كذا وكذا » و « ثق يا عزيزي بأنني متمسكة برأيي » ، و « أجل » ، و « ربما » ...

والسيدة السكوبية هذه تقع في حدود الحمدين من عمرها ، قصيرة القامة ، نحيفة الجسم ، عظيمة الهيئة ، مجمدة الوجه ، غائرة العينين ، مصفرة الأسنان ، وبعضها قد نخره السوس ، لكنها تحتفظ بشعر أشقر طويل تضفره وتمقده حول رأسها ، وهي تحاول دائما أن تكون ضحوكا لموبا ، ميالة إلى تقليد الفتيات الثافعات الطارقات حديثا أبواب الحياة ...

وتسكن هذه السيدة في دير الأرذ الواقع بين منعطفات المرحلة الثالثة من طريق الآلام في مدينة القدس القديمة ... وعرفتها على قدرها ، طولها أربعة أمتار ، وعرضها متران ، ويتألف أثاثها من سرير مفرد ، يستند إلى قوائم أربع ، إلا أن فراشه يقبل الأرض ! وخزانة ضيقة عتيقة عرجاء ، تقف في الزاوية كما يقف المسكين مستمطيا ... ومائدة صغيرة تستعمل لكل شيء : للطبخ والأكل والزينة ، فقدت سوداء براقة لاختلاط دهانها بالزيت التي تساب عليها من الصحائف والملاعق ، وبساطا « موزايكا » حيك من مختلف الشرط البالية ، وصورة علفت على الحائط تمثل « الخيفر » راكبا على فرسه وهو يلثم التين رأس حربته ... وألبسة وقبعات نشرت على مشجب خشبي ... أما باب الغرفة ، فقد دقت فيه من الداخل مسامير صغيرة تستعمل لتعليق بعض المناشف وأوائل منزلية أخرى ... وألصقت عليه من الخارج رقعة كتب عليها : « أولجا نيقولا يفنا رومانوفا »

وتدعى السيدة السكوبية بأنها متعندة من آل رومانوف

قياصرة روسيا ، وأن « الدهر الخوون » طوَّح بها إلى بلاد العرب ، وأنها فقدت زوجها ، ولم تنجب منه أولادا ، فتفرغت للمباداة والخدمة في الصليب الأحمر ، وهي تعتقد أن لها « صلات قدسية » مع بعض القديسين ، وبوسمها أن تكون وسيطة فيما بينهم وبين قاصديهم من طلاب الحاجات .

والسيدة السكوبية جيران يشفقون عليها فيمدونها بين حين وآخر بما تيسر من حواضر البيت ، وتغنم هي الفرص في كثير من الأحيان فتقف عند باب غرفة جارها وتناديه ، فإن كان داخلها ورد عليها سأله :

— هل لي أن أعرف الوقت الآن ؟

وإن كان خارجها دفت الباب صارخة :

— ما بك يا جاري ... عساك بخير ؟ فإن لم تجد في الترفة أحداً تناولت شيئا ، وانسحبت على عجل !

وفي أحد أيام شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٣ حلَّ في الدير ضابط بولوني اسمه « يوزيك غروزني » مروح من الجيش لعدم صلاحيته للخدمة العسكرية ، واستأجر غرفة في الطابق الأسفل من الدير ، وكان متاعه ما جلبه معه من الجيش من سرير عسكري وأحزمة وألبسة وأدوات أكل ...

وهنا تبدأ القصة :

فبينما كان يوزيك مستلقيا على سرير ذات مساء ، يستعرض بحرقه وألم الأيام العصيبة التي مرت به منذ أن فر من بولونيا ، حتى اشتراكه في معارك ليبيا ووقوعه جريحاً ، وإحالاته إلى هذا الدير عاطلا ، إذ به يلح امرأة تقف عند نافذة غرفته وهي تبسم له وتقول بالبولونية :

— حضرتك جارنا الجديد ؟

— نعم !

— أنت جندي ؟

— أجل ، ومرحت لمطل في ساق

— ومن أية بلدة بولونية أنت ؟

— من لودز

— أحقا أنت من لودز ؟ يا لغريب المصادفات ! إنني قضيت

شظرا من شبابي في هذه المدينة الجميلة !

— وحضرتك ما اسمك؟ ومن أين؟

— أنا أولجا نيقولا يفنا رومانوفا! (ورفعت رأسها إلى السماء قليلاً) إن الدم الأزرق يجري في عروقي، دم آل رومانوف! فانتفض يوزيك في سريره وانتصب واقفاً وهو يحدق النظر بـ «الأميرة» الشردة، وكان ينتابه عاملان خفيان: عامل الكره للروس، وعامل الحاجة إلى المونة. يود أن يصرخ في وجه «سليلة» آل رومانوف، ويسمعهما قاص الكلام في حق أبيها وعمها والحاشية القيصرية كلها، لكنه أحس أنه أصبح من مساكين هذا الدير، وهو في مسيس الحاجة إلى من يساعده ويواسيه، وعليه أن يكون سمحاً متواضعاً، فخرج إلى حيث تقف السيدة المسكوية، وقرع قدمه اليمنى بقدمه اليسرى، وحيها بإصبعيه التحية العسكرية البولونية، ثم انحنى على يدها وطبع عليها قبلة رشيقة!

وتواتل الزيارات فيما بعد بين يوزيك وأولجا، فكانت هي تدعوه إلى شرب الشاي عندها، وكان هو يشتري لها بعض الهدايا من الماش الذي يتقاضاه من الوكالة البولونية. وهكذا توطدت أواصر الصداقة فيما بينهما، وشعرا بالدفء إلى جانب بعضهما... وفي ليلة كانا يقادلان فيها انتخاب الفودكا، فاتحها يوزيك بالزواج، فأسبلت عينها خجلاً وتمتمت قائلة: «حقاً إنك لعفريت يا يوزيك... أيتزوج عملاق لم يبلغ الأربعين من امرأة ضعيفة قد ناهزت الخمسين؟!»

قال: ولم لا؟ الحب يا سيدتي لا يقر بمحد للأعمار، ولا يمتزج بالسم أو الهزال... الحب هو تبادل الماطفة الشبوية بين نفسين متجانستين متفاهمتين...

قالت: أتحبني إذن؟

قال: فلتشهد السماء على حيي لك... وللشرب نخب الحب والزواج...

ولم تمض أيام على هذا الحديث حتى عرف كل من في الدير أن أولجا أصبحت زوجة ليوزيك، وأنهما سميدان في زواجهما هذا. ومن مظاهر هذه السعادة أنهما كانا دائماً منطويان على نفسيهما في غرفة أولجا، يشربان الشاي نهائياً، والفودكا ليلاً، ويدخنان ويتأجنان ويقهقهان عالياً، ويمربدان أحياناً بصورة

تقلق راحة الجيران، إلا أن هؤلاء كانوا يتساعون مع المروض الجديدين، وبغضون الطرف عما يبدانه في الدير من طيش نا عن انفعالات النفس والماطفة...

وحدث في منتصف الليلة الثانية من الشهر الثاني لزو يوزيك بأولجا أن هبّ سكان الدير مذعورين على صراخ عنيف وقرع شديد على باب المر المزدى إلى الغرف، وسمعوا أولجا تكة الباب والشتائم ليوزيك، فتقول له: — اذهب أيها السك إلى غرفتك... إنني آويتك وأحسنت إليك... اذهب! الشرود... وكان يوزيك يجهها: لقد سرقيني يا فاعلة! وكذا... والله لأبطشن بك... واحتدم الجدل فيما بينهما وهد يوزيك باب المر، ثم افتحم غرفة أولجا ولكهما على عينيها كقوة تركت حولها هالة زرقاء، فاستنجدت بالجيران، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على التدخل، فاستنجدت مرة أخرى بألحى، فجاءها الحراس واعتقلوا يوزيك، واقتادوه إلى دار الشرطة حيث حرر الضابط المسئول محضراً، وكانت أرم هي المدعية والشاهدة، فقالت في إفادتها: «لقد حطم زو الأبواب وضربني، فأننى أطلب له أقصى درجات العقوبة» ولما عادت إلى بيتها وسكنت إلى نفسها أخذ ضميرها يؤنب فراحت تبكي وتنتحب وتتساءل قائلة: — «رباه! من الاسبب لزوجتي الاعتقال غيضى؟... ومن الذى أسكره، ومرة وقاده إلى سطح الدير سوى؟»

يسدو أن الإنسان مهما انحطت أخلاقه وفسدت، ودهور إلى مصاف الأسافل وتخبط في حضيض الحياة، يحملا في نفسه القليل من الكرامة، واليسير من المعنويات فتراها إذا ما هزته مساوئه يشوب إلى رشده، ولو إلى حين فيذكر أنه لا زال ينتمى إلى بني الإنسان، وأن ما يقوم به أعمال شريرة لأمر يناقض الأنظمة العامة التي اتفق عليها الناس يخالف الطبيعة البشرية على الجلمة.

وهكذا أحست أولجا بما ملخى يدها لأن تسمف يوزيك ضادت للتو إلى دائرة الشرطة وقالت للضابط المسئول: — أدخل بعض توضيحات في إفادتي.

فقال — وما هي؟...